طرائف من العصر المملوكي :

الشعر والنقد الاجتماعي

للأستاذ محمود رزق سليم

نقد المجتمع من أهم ما يعنى به المصلحون ، إذ يقوم إصلاحهم على دعامة منه ، ينظرون في شئون مجتمعهم ، ويتتبعون ضروب الفساد فيه ، ثم يحملون عليها حملات شعواء لا تبقى ولا تذر ، ويبينون للناس ما هم مترددون فيه من شقاء . ثم يعملون جاهدين على إنقاذهم من ترداهم ، وتوجيههم إلى سبل السعادة المرجوة . فمثلهم مثل الأطباء يتحسسون الداء ويصفون الدواء . وكلما اتضحت ضروب الفساد ، وناء المجتمع بما فيه من أمراض ، اشتدت الحاجة إلى هؤلاء المصلحين ، ودعت الداعية إلى بروزهم في الميدان ليعملوا ويكافحوا . فيلجأ الخطيب منهم إلى خطابته والكاتب إلى مقالته والشاعر إلى قصيدته وذو الرأي إلى قريحته وفكرته وقد يكون الشعراء أبعد القادة وأولى الرأي عن النظر في شئون المجتمع من ناحية تلمس نقائصه ، وتتبع مثالبه ، والعمل على تلافيها والدأب على إصلاحها . إذهم في أغلب أمرهم صدى للمجتمع نفسه بما فيه من نقائص ومثالب ، لذلك يتلمس مؤرخ الأدب أحياناً نقائص عصر ومثالبه في شعر شعرائه ، كما يتلمس مزاياه وفضائله سواء بسواء . فكم يكون جميلا إذن ، أن نرى الشعراء يدلون بدلوهم في الدلاء ، ويشاركون في باب الإصلاح ، ويتتبعون مثالب مجتمعهم ونقائصه فينحون عليها باللائمة ويثقلون عليها بالنقد المرير اللاذع ، ويشهرون أمر فساده بين الناس حتى تتضح معالمه وتتبين شياته وهناته ...

إنها لظاهرة أدبية طيبة واتجاه فكري سام ، يسجلة مؤرخ الأدب لشعراء عصر من العصور ، إذا ما وجد من بينهم ثلة صالحة يهولها فساد المجتمع ، ويروعها انتشاره وترديه ، فتعمل جاهدة في صدق على نقده وتنفيره مما هو فيه ، على أمل أن يثوب إليه رشده ، ويثوب إليه صوابه . ثم هي بذلك تمد التاريخ بوثائق صادقة يقرأ فيها بوضوح بعض نواحي العصر .

هكذا نسجل بخ ونحن نؤرخ العصر المملوكي وأدبه — هذه الظاهرة النابهة لشعرائه . فقد أضحى النقد الاجتماعي غرضاً شائعاً هاماً بين أغراضه الشعرية المطروقة .

وإن القارئ ليملؤه العجب ويأخذه الدهش إذا علم أن شعراء هذا العصر هم وحدهم الذين حملوا راية النقد الاجتماعي دون سواهم من القادة وأولى الرأي والبصر . لذلك كان حمدنا لهم مضاعفاً وثناؤنا عليهم مستطاباً .

ولا نتجنى على غيرهم من أصحاب البيان وأهل القلم واللسان، فقد ترى الكاتب نقدة عابرة ، أو تسمع لخطيب زجرة طائرة . ولكن ذلك كان على وهي وارتياب . ولم يكن خطة موضوعة ولا منهاجاً متبعاً . بل حوادث فردية ووقائع شخصية . وإنك لو طويت الكشح عن عظات لبعض علماء العصر على المنابر أو غيرها ، يوجهونها للشعب أو حكامه ؛ وإنك لو لويت الجيد عن بعض ما تخال مقدمة ابن خلدون وبعض كتب التاريخ من نقدات ، ما وجدت بعد ذلك من النقد الاجتماعي شيئاً يدل عليه ويشار إليه . فإذا أردت أن ترى أين النقد حقاً ، فانظر في شعر شعراء العصر ، فإنك واجد فيه — بلا ريب — ما تشتهي .

أما خطباء العصر فكانوا من علماء الدين جلهم اتخذ الخطابة المنبرية وسيلة إلى الرزق أكثر منها سبيلا إلى النصيحة ، وطريقاً إلى الجاه أقرب منها أداة إلى الإصلاح . وكتاب العصر كانوا في شغل شاغل بوظائف الدواوين وتدبيج رسائل السلاطين ، وما يدره عليهم ذلك من خير وفير ورزق كثير . وعلماء العصر ممن شغلوا أنفسهم بالتأليف كانوا في أبراجهم العاجية يعيشون بمنجى عن الشعب ومنأى ، بين ترف ذهني ونعيم فكري . وليس لهم هم إلا أن يؤدوا للعلم أمانته ويدونوا ما خلفته العصور وما وعته الصدور . فلم يبق إلا الشعراء فهم من الشعب وإليه ، وهم تراجمته ومرائيه ، وألسنه المشروع ، وحناجره النافثة ، صوتهم من صوته ، ونداؤهم من ضميره ، ونقدهم قبس مما يتردد في أعماقه ويتراءى في آفاقه . والشعب — على ضعفه وعفلته — له نقدات مريرة ولفتات خطيرة ، تتنزى بريئها نفسه ، ويعوج بآلامها فؤاده . ولكن فكره موءود، ولسانه معقود، وغضبته مطروحة ، وحدته مكبوحة . ولا من يترجم عنه أو يتحدث بما في نفسه إلا شعراؤه . هكذا كان شعراء العصر المملوكي .

والمجتمع المصري حينذاك كان قطناً بضروب من الفساد لا حد لها ، خاصاً بمواضع النقد ، قميناً بالحملة عليه والسعي في إصلاحه . ولكن هيهات .

لقد كان الشعب يعانى من حكامه جوراً وعسفاً ، ومن موظفيه نهباً وسلباً وإهمالا . وكان هؤلاء طبقتين متميزتين عن بقية طبقات الشعب التى منها طبقات التجار والزراع والصناع ، لا تكاد تجمع بينهم جامعة صالحة إلا جامعة الدين والوطن . وكانت مشاكل الأسرة لا تقف عند حد ، وإدعاءات الطوائف لا تعرف هوادة . وكثر أدعياء العلم والأدب ، ومحترفو الزهد والورع . وكادت الرشوة والسعى بها إلى المناصب تصبح قانوناً منظماً . وذاعت السرقات الأدبية فى غير مبالاة . وانتشر الزنا واللواط والتسرى بالغلمان ... وشرب الخمر وتعاطى الحشيش ، إلى غير ذلك من مفاسد شائعة دائمة .

نظر الشعراء إلى كل ذلك فنقدوه وحملوا عليه ، وخلدوا عنه فى التاريخ صفحة لا تلين ولا تمين . والسائل أن يقول لم اهتم الشعراء كل هذا الاهتمام بنقد مجتمعهم ولم ينصرفوا عنه انصراف سواهم راضين منه بالعافية والسلامة ؟ نعتقد أن فى مقدمة أسباب هذا أن العصر بحكامه وشعبه جهل مكانتهم وتنكر منزلتهم وأن الثراء عن طريق القريض كان قد صوح زمانه ، وضوى ينعه وريعانه ، فلا سلطان يسخو ولا أمير يجود . لهذا قاسى الشعراء مع ألم التنكران مرارة الحرمان . فأحقد ذلك نفوسهم وأحنقها ، وأثار خواطرهم وأقلقها ، والمحروم واجد النفس مفتوح العين على الثغرات يرى منها مالا يراه سواه ... ثم هم أمنوا النقمة واطمأنوا إلى العافية ، وذلك لأن الحكام أعاجم بالفطرة لا يفهمون من الشعر إلا أثارة . وهم عن سقائط الشعراء مشغولون بحروبهم فى الخارج أو فتنهم فى الداخل ، ثم هم بين هذه وتلك يحبون فى نعيم وارف وترف فياض ، يحجب عن أسماعهم شكوى المحروم وأنة المكلوم ودعاء المظلوم — كان الشعراء إذن فى حرية رافهة وأمن واسع ، وانطلقوا من كل قيد يخشاه الأديب على نفسه حتى قيود المجاملة والرياء ، وثارت ثائرة بعضهم حتى خلط فى حديثه بين النقد والهجاء ولو قد وجدا فى الشعب مستجيباً وملبياً لكان لنقدهم أثر حميد وعاقبة نافعة ، وفعل رشيد .

ولا يهولن القارىء — إذا ما عرضنا عليه نماذج النقد — ما يراه فيها أو فى بعضها من نزول فى مستوى أسلوبه وبخاصة إذا قاسه بما درس من شعر أندادهم فى عصور كانت فيها الملكات العربية لا تزال على جِدتها أو فى عصور التقت فيها الثقافات ولقحت العقول وكرمت القرائح على القول .

١٧ ، ٣٠

ويطالعنا فى أول ما نسوقه ، نقد شرف الدين البوصيرى (٦٩٥هـ) . كان البوصيرى حسن السيرة صادق السريرة وظف فى مطالع حياته فى دواوين الدولة كاتباً ، فرأى من عبث كتابها وجباتها ماهاله من عبث . وشهد من إهمالهم ما راعه من إهمال . فجأر منهم بالشكاية وأنحى عليهم بالزراية فقال يخاطب أحد أولى الأمر :

فلا تدن منهم واحداً منك ساعة — ولو فاح من برديه مسك وعنبر
وبرد فؤادى بانتقامك منهم — فقد كاد قلبى منهم يتفطر
منعت بهم حظى شهوراً ولم أصل — إلى حظهم حتى مضت لى أشهر
فما فيهم — لا بارك الله فيهم — لخير ثم إلا يخون ويغدر

وقال فيهم أيضاً :

نقدت طوائف المستخدمينا — فلم أر فيهم رجلا أمينا
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم — مع التجريب من عمرى سنينا
فكتاب الشمال هم جميعاً — فلا صحبت شمالهم اليمينا
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا — بهم فكأنهم سرقوا العيونا

ومنها يذكر من ادعى منهم النسك ، ويذكر اختلاف الطوائف فى مصر وإدعاء كل طائفة بحقها فيها :

تنسك معشر منهم وعدوا — من الزهاد والمتورعينا
وقيل : لهم دعاء مستجاب — وقد ملئوا من السحت البطونا
تفقهت القضاة فخان كل — أمانته وسموه الأمينا
وما أخشى على أموال مصر — سوى من معشر يتأولونا
يقول المسلمون : لنا حقوق — بها ولنحن أولى الآخذينا
وقال القبط : نحن ملوك مصر — وإن سواهمو هم غاصبونا
وحلت اليهود بحفظ سبت — لهم مال الطوائف أجمعينا

ومن طريف نقد البوصيرى قصيدته الرائية الفكاهية التى وصف فيها حال أسرته فى رمضان وعيد الفطر ، وما استحدثاه بين أفرادها من خلاف ونزاع هما نتيجة الحرمان . وهو وصف يشعرك بما للفاقة من أثر سىء فى التفرقة بين أفراد الأسرة . ويشعرك بأن أسرة البوصيرى هى نموذج للأسرة المصرية المتوسطة ، ونموذج لشاكلها من عهده إلى الآن ومنها يصف أفرادها قال :

صاموا مع الناس ولكنهم — كانوا لمن أبصرهم عبره
إن شربوا فالبئر زير لهم — ما برحت والشربة الجره
لهم من الخبز مسلوقة — فى كل يوم تشبه النشره
أقول مهما اجتمعوا حولها — تنزهوا فى الماء والخضره

ثم يصف العيد وتطلع الأبناء فيه إلى الكعك والنقل ، ثم يدب من النزاع بينه وبين زوجته ، وتدخل أخت الزوجة فى هذا النزاع لمصلحة أختها ، فهى بذلك تضرم نار العداوة بين الزوجين ، وتهون شأن الزوج وتجرى عليه زوجته ، فتنتهى المأساة ، تستقبل رأسه بآجرة . وهكذا نرى كيف يفشى الجهل بأصول الحياة وروابط الأسرة عيون أفراد الأسرة المصرية من قديم الزمان ، بفهم بعضهم أن رابطة الأسر شركة تعاونية بل فرصة استغلالية كذا . ومما يشبه قول البوصيرى فى كتاب الدواوين ، قول ... الدين الواسطى يشكو قوما إلى نائب السلطان بالشام قال :

نب السلطان لانك غافلا   عن قتل قوم للظواهر زوقوا
م مجاريل لصوص كلهم   فأمر بهم أن يقتلوا أو يشنقوا
الك لا تجدى إليك شكاية   إلا لأنك حائط لا ينطق ... الخ

وقال شهاب الدين الأعرج ينقد الأتراك والقبط ويذكر نشارهم بالرزق :

يف يروم الرزق فى مصر عاقل
ومن دونه الأتراك بالسيف والترس
. جمته القبط من كل وجهة
لأنفسهم بالربع والثمن والخمس
رك والسلطان ثلث خراجها
وللقبط نصف والخلائق فى السدس

ونقد كال الدين الإدفوى (٧٤٨) هـ صاحب كتاب «الطالع ميد» حالة التعليم والمعلمين فى عصره فقال :

الدروس بعصرنا فى عصرنا   طبعت على لغط وفرط عياط
احث لا تنتهى لنهاية   جدلا ونقل ظاهر الأغلاط
رس يبدى مباحث كلها   نشأت عن التخليط والأخلاط

ومنها قوله :

اضل النحرير فيهم دأبه   أقوال رسطاليس أو بقراط
رم دين الله نادت جهرة   هذا زمان فيه طى بساطى

وقال مجد الدين بن الخياط يصف شعارير زمانه — وهم كثر كل زمان — :

متشاعرى عصرى أناس   أقل صفات شعرهم الجنون
رف القريض قيام وزن   وقافية وماشاءت تكون

وبمناسبة ذكر الشعراء نسوق بيتين من أبيات لشهاب الدين الأنصارى يهجو منهم من يقترف ذنب المديح فقال :

أرى الشعراء تكسب عارا   بهجائهم وتحملوا الأوزارا
مدحوا الأخساء اللئام فضيعوا الـ   أشعار لما أرخصوا الأشعارا

هذا مع العلم بأن قوما من الشعراء ربئوا بأنفسهم عن المديح بل عن صناعة الشعر وفضلوا عليها حرفة متواضعة احترفوها . انظر إلى أبى الحسين الجزار يقول :

كيف لا أشكر الجزارة ماعشـ   ـت حفاظا وأرفض الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجيـ   ـنى وبالشعر كنت أرجو الكلابا

وكثير من الشعراء نعى حظ الآداب ورثى لحال الشعراء وشكا انصراف الناس عنهم وعن إنصافهم .

وكانت الصوفية قد وجدت فى هذا العصر مراحا خصيبا ومرعى رطيبا ، غير أنه — بلا ريب — اندس بين أهلها من ليس منهم فشابوها وعابوها :

فكان ذلك مثارا للنقد القاسى المقذع . قال الأديب المؤرخ فتح الدين بن سيد الناس :

ماشروط الصوفى فى عصرنا اليو   م سوى ستة بغير زيادة
وهى ...... والسكر والبطالة   والرقص والغنا والقيادة
وإذا ما اهتدى وأبدى اتحادا   وحلولا من خلوة وإعادة
وأتى المنكرات عقلا وشرعا   فهو شيخ الشيوخ ذو السجادة

ونختتم هذا الحديث بذكر أحد أدباء العصر وهو الشاعر جمال الدين السلمونى من شعراء عصر الغورى فقد وقعت بينه وبين قاضى قضاة عصره عبد البر بن الشحنة الحنفى ، فتنة أوذى الشاعر بسببها ، وليس هنا مجال تفصيلها وكان الشاعر قد هجا القاضى ونقده بقصيدة لاذعة مريرة رددها كل لسان وسارت بذكرها الركبان ، وأبياتها إذا أغضينا النظر عن القاضى عبد البر — تصور إلى حد ما مفاسد القضاة تصورا صادقا . قال منها :

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها   ولم لا وعبد البر قاضى قضاتها
أينكر فى الأحكام زور وباطل   وأحكامه فيها بمختلفاتها
إذا جاءه الدينار من وجه رشوة   يرى أنه حل على شبهاتها

ومنها :

ألست ترى الأوقاف كيف تبدلت   وكانت على تقديرها وثباتها
وقد وثبت فيها قضاياه بالأذى   وبالبيع مثل الأسد فى وثباتها

وبعد فهذه فضالة مما وعاه الرأس وثمالة من رحيق الكأس ، تنبئان عنهما كما ينبئ الشعاع عن الشمس .

محمود رزق سليم
مدرس بكلية اللغة العربية